وهذا شرط جواب الشرطية الثانية وجواب الشرط الثاني محذوف تقديره فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض
او سلما في السماء فتاتي قومك باية فافعل والمراد بيان حرصه البالغ على اسلام قومه وانه لو قدر على ان ياتيهم
باية من تحت الارض او من فوق السماء لاتى بها رجاء ايمانهم والنفق سرب في الارض له مخلص الى
مكان آخر ومنه نافقاء اليربوع فان اليربوع يحفر في الارض الى القعر ثم يصعد عن ذلك القعر الى وجه الارض
من جانب آخر قوله في الارض صفة نفقا فيتعلق بمحذوف وهو صفة قصد بها مجرد التاكيد اذ النفق
لا يكون الا في الارض ويجوز ان يكون كل واحد من الظرفين ظرفا لغوا متعلقا بالفعل الذي قبله وان يكون
حالا من المستكن في تبتغي وانت مستقر في الارض او في السماء قوله ولكن لم يتعلق به مشيئته
وذلك لان جميع الحوادث مستندة اليه تعالى ابتداء ولا يجري في ملكه الا ما يشاء
من الكفر والايمان والطاعة والعصيان فان قدرة العبد لكونها صالحة للضدين
غير كافية في رجحان احد الطرفين على الآخر فلا بد ان يتحقق فيه داعية ترجيح احد المقدورين
على الآخر وحصول تلك الداعية ليس من العبد والا لوقع التسلسل فخالق تلك الداعية هو الله تعالى
وان مجموع الداعية التي لا مدخل فيها للعبد مع قدرة العبد يوجب الفعل ولزم منه ان يكون خالق
ذلك المجموع المستلزم للكفر مثلا مريدا للكفر غير مريد للايمان فتطابق البرهان مع ظاهر القرآن
والمعتزلة لما ذهبوا الى انه تعالى لا يريد من المكلف الا الايمان والطاعة ودل قوله تعالى
لو شاء لجمعهم على الهدى على انه تعالى لا يشاء ايمان الكافر بناء على ان كلمة لو تدل على انتفاء الثاني
لانتفاء الاول لزمهم القول باجتماع النقيضين لان برهانهم دعاهم الى القول بان الله تعالى لا يريد
ايمان الكافر فاضطروا في التوفيق بين ما يقتضيه البرهان والقرآن الى ان يقولوا ان مقتضى
القرآن كونه تعالى مريدا لايمان الكافر بالطوع والاختيار ومقتضى البرهان كونه تعالى مريدا لايمانه
بطريق القسر والالجاء فانه تعالى لا يحمل العبد على الايمان بان يريه آية تلجئه الى الايمان لكونه منافيا لما هو
المقصود من التكليف هو ان يتميز المطيع من العاصي ومن يعبد الله تعالى ممن يعبد هواه وان يجازي
كل احد بما يختاره لنفسه وما يقع بطريق الالجاء والاضطرار لا عبرة به في امر الاثابة والتعذيب
ولذلك لم يجمعهم على الايمان بطريق الالجاء قوله انما يستجيب فان استجاب قد يستعمل بمعنى اجاب كما في قوله
وداع دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك فقلت ادع اخرى وارفع الصوت دعوة لعل ابي المغوار

المغوار منك قريب اي لا يستجيب دعوتك الى الايمان الا الذين يسمعون فيفهمون ويتدبرون
دون الموتى والصم وهؤلاء الذين تحرص على ايمانهم ويكبر عليك اعراضهم موتى وليس في قدرتك
ان تسمع الموتى استعار الموتى للجهال لان العلم حيوة القلب والجهل موته لا يسمعون انما يسمعون
لان قلوبهم موتى بالحقيقة وقيل الفرق بين يستجيب ويجيب ان يستجيب فيه قبول لما
دعي اليه وليس كذلك يجيب لان المجيب قد يجيب بالمخالفة كما اذا قلت لغيرك اتوافقني
في هذا الامر ام تخالف فيقول المجيب اخالف والمعنى لا عرض على ايمان من ختم الله تعالى
على قلبه وسمعه فانهم كالموتى من حيث عدم انتفاعهم بالحيوة والهوى المعتد في الاحياء لاستكمال
النفس فهم يسمعون دعوتك اياهم الى الحق سمع يحبسونها وانما يستجيب الذين وفقهم الله تعالى
لاتباع الحجة والبرهان واما الموتى وهم الكفار فان الله تعالى يبعثهم في الآخرة ثم اليه
يرجعون فيجزيهم باعمالهم ومن شبه منكري نبوته صلى الله عليه وسلم انهم يقولون لولا انزل
عليه آية من ربه ولو كان رسولا من عند الله فهلا انزل عليه آية تدل على رسالته ولما كثرت
آياته ومعجزاته وجب تقييد الآية التي طلبوا انزالها بكونها مما اقترحوها او بكونها [illegible]
لما انزل عليه من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عنادا فامر الله تعالى ان يجيبهم بان
يقول لهم ان الله تعالى قادر على ان ينزل آية مما اقترحوه او آية تضطرهم الى الايمان او آية
معقبة للهلاك ان جحدوها فان سنة الله تعالى جرت على انه اذا انزل الآية الاقتراحية ولم يؤمنوا
استأصلوا وهو عليه السلام نبي الرحمة فلا يستأصل من انكر نبوته ولكن اكثرهم لا يعلمون كونه تعالى
قادرا على انزال ما اقترحوه او كون انزالها يستجلب عليكم [illegible] انه تعالى لما اجاب المقترحين
بانه قادر على انزال ما اقترحوه ولكنه لم ينزلها لحكمة يعلمها ولا تعلمونها فرد ذلك الجواب
بان قال وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم في كون احوالها
ومصالحها محفوظة مرعية وارزاقها وآجالها مقدرة مضبوطة فلما روعي مصالح ما هو ادنى
حالا منكم فلم يهمل شيء مما يليق بها فكيف تظنون ان يهمل مصالحكم فلولا كان في انزال الآية
التي اقترحتموها حكمة ومصلحة داعية الى انزالها لما ترك الله انزالها وكلمة من في قوله
تعالى وما من دابة زائدة للاستغراق ودابة مبتدأ والا امم خبرها مع ما عطف عليها وفي الارض

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)